

خطاب صاحب السمو الآغا خان " التعليم العالمي والعالم النامي "

"محاضرة بترسون " التي قدمها صاحب السمو الآغا خان في الاجتماع السنوي لشهادة البكالوريا الدولية بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيسها
أتلانتا ، جورجيا . 18 نيسان 2008

الدكتور ه مونيك سبفريد ، رئيسة مجلس المحافظين للبكالوريا الدولية ، والأعضاء
السيد جيفري بيرد ، المدير العام للبكالوريا الدولية
السادة المدرسون والطلاب من لجنة البكالوريا الدولية
الضيوف الكرام

إنه لشرف عظيم أن أكون معكم اليوم . لقد تطلعت الى هذا اللقاء منذ وقت طويل ، وانني ممتن بشكل خاص لمونيك سيفريد لتقديمها الكريم لي لهذه المحاضرة، ولوصفها الجميل لكلا السياقين المحلي والعالمي الذي نلتقي فيهما.

إن هذه المناسبة هامة جداً بالنسبة لي لأسباب عدة ، انها هامة - بالطبع - لأنها توافق الذكرى الأربعين لما اعتبرها إحدى المؤسسات الأصلية الكبرى في عصرنا، والتي هي برنامج البكالوريا الدولية . أقول ذلك لأن برنامج البكالوريا الدولية يجسد فكرة قوية ، يجسد الثقة بأن التعليم يمكنه من إعادة صياغة الطريقة التي من خلالها يفكر العالم حول ذاته .

أشعر بأنني كُرمت كثيراً بإعطائي هذه المحاضرة الخاصة ، محاضرة بترسون التي تُعتبر أيضاً ميراثاً كبيراً . ومن المناسب الاحتفال بحياة اليك بترسون وبأعماله ، بترسون الذي كانت قيادته الفكرية والأخلاقية محورية لهذه المنظمة ولكل المنظمات التي تأثرت بها .

بكل تواضع ، دُعيت إلى تقديم محاضرة بترسون للمرة الأولى . وعلى الاعتراف بأن شعوري بالاحترام قد كُبر عندما بدأت أتصفح لائحة المحاضرين السابقين المبدجلين، وعندما اتخذت آنذاك خطوات أخرى فتأملت ما قاله هؤلاء الأشخاص عنه على مر السنين . وفضلاً على ذلك ، لقد تأثرت بعمق بتحمل مسؤولية هذه المهمة .

تكوّن محاضرات بترسون المجموعة معاً، لائحة مدهشة للقراءة في مقرر تعليمي لجامعة متميزة يتعلق بموضوع تعليم دولي . بعد الاطلاع على المحاضرات ، تساءلت فيما إذا تُرك للقول أي شيء آخر حول هذا الموضوع ، ولكن إذا كان على أي شخص أن يدمج هذه المحاضرات في منهاج جامعة ، عندئذ قد يكون من المناسب لملاحظاتي الآتية أن توضع تحت عنوان " قراءة إضافية اختيارية " .

أخيراً، إن لهذه المناسبة معنى خاص بالنسبة لي، لأنها تأتي - كما قد تعلمون - في الذكرى الخمسين لي كزعيم ديني، أو إمام للمسلمين الاسماعيليين الشيعية . ومن ثم فإننا نحتفل اليوم معاً بالذكرى الأربعين والذكرى الخمسين ، وكلتا المناسبتين توفران الفرص لربط ماضيينا مع مستقبلنا ، وجذورنا بأحلامنا .

لقد صادفت مفاجأة مدهشة إلى حد ما عند الاطلاع على نصوص محاضرات بترسون السابقة . هناك خطابان من خطابات السنوات الماضية اقتبست أقوالاً لجدي السير سلطان محمد شاه آغا خان الذي ورثت دوره كإمام في عام 1957 . كما أنني ورثت منه الاهتمام العميق بتقدم التعليم في الدول النامية بشكل خاص . وكان هذان الموضوعان ، التعليم والتنمية ، محور أعمالنا الخاصة على مدى السنوات الخمسين الماضية ، وسيكونان الموضوع المركزي لملاحظاتي اليوم .

في وقت مبكر جداً من انتهاء الحرب العالمية الثانية، أرسلت مع أخي إلى مدرسة لو روزي في سويسرا . وبعد سنوات قليلة في تلك المدرسة ، أصبح مدرب جديد لرياضة التجديف جزءاً من المدرسة، وقيل لنا أنه سيدرب أيضاً فريق هوكي الجليد خلال عطلة الشتاء. لقد كان اسمه فاكلاف روبيك ، ولكنه ليس واحداً من أقطاب روبيك المشهورين ، بل بالأحرى يشبه أحدهم المشهور وذا النفوذ البارز. كما أنه كان يعتبر واحداً من أكثر الرياضيين الموهوبين والأذكياء الذين قابلتهم في حياتي . لقد كان في فريق هوكي الجليد الوطني التشيكي الذي كان من أفضل الفرق في العالم ، وكان أيضاً في فريق القوارب الرباعية والثمانية الوطنية من دون ربانها، كما كانت زوجته في فريق الهوكي الميداني الوطني التشيكي. وهكذا كانت مدرسة لو روزي محظوظة جداً بوجود بطلين استثنائيين في رياضة التجديف. بيد أن هناك بعداً آخر لدى فاكلاف روبيك ، كان يحمل دكتوراه في القانون ، وكان مع زوجته لاجئين سياسيين هرباً سيراً على الأقدام من تشيكوسلوفاكيا إلى سويسرا. لقد كان ذا شخصية جذابة ، وبعد سنتين فقط من التدريب نجح في ضم 18 طاقماً من القوارب الرباعية معاً تحت إمرته، وقد ربح بهم كل سباق خاضه بما فيها بطولة سويسرا الوطنية لكل الأعمار.

لقد اعتدنا على تضيئة ساعات طويلة في ركوب الحافلات متنقلين من مباراة تجديف إلى أخرى ، ومن مباراة هوكي جليد إلى ثانية. إنني أتذكر سؤالاً طرحته عليه، ماذا ينوي فعله عندما لا يستطيع رؤية رجل بمثل كفاءته سيبقى غير معروف كمدرّب رياضة في مدرسة سويسرية صغيرة؟ وكان جوابه أنه سيقدّم طلب لجوء سياسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحالماً يُقبل طلبه سيذهب إليها . سألته عند ذاك كيف سيتدبر معيشته عندما يأتي إليها ، لأنني متأكد من أنه لن يواصل مهنته كمدرّب رياضة ، فظل جوابه في ذهني منذ ذلك الوقت لأن قال لقد هربت وزوجتي من تشيكوسلوفاكيا وليس معنا شيء غير الثياب على ظهورنا والأحذية في أقدامنا ، ولكننا نملك ثقافة جيدة تمكنني عندما أصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية من الحصول على نوع العمل الذي أرغبه . عندما تركت مدرسة لو روزي ، فقدت إلى حد ما الاتصال معه، والشيء الوحيد الذي سمعته عنه، أنه أصبح من كبار المسؤولين التنفيذيين في شركة ماكنات سنجر للخياطة .

إن المغزى المعنوي لهذه القصة واضح، إذا كنت لا تمتلك شيئاً في حبيك ولديك الملابس والحذاء الذي تنتعله ، وتملك في ذهنك الثقافة الجيدة ، يمكنك اغتنام الفرص التي تقدمها الحياة لك ، وأن تبدأ حياتك من جديد. وأظن أن العديد من أفراد الطائفة الإسماعيلية الذين طردوا من أوغندا من قبل الرئيس عيدي أمين مثل غيرهم من الآسيويين ، وبنوا لهم حياة جديدة ناجحة في مناطق أخرى من العالم ، سيخبرونكم بالقصة نفسها .

لقد أدركت منظمة البكالوريا الدولية منذ بدايتها الفعلية هذه الحقيقة المركزية ، ولكن عندما ننتقل إلى قرن جديد ، أود أن أضم إلى كلماتي عن التهئة والتناء بعض الكلمات عن الاستفسار والتحدي . ما هو الغرض والمآل الأخير للبكالوريا الدولية في المجتمعات النامية ، وضمن السياق الإسلامي ؟ ما الذي يمكن أن تسهم به تلك العوالم بالنسبة إلى مجتمع البكالوريا الدولية ؟ كيف يمكن لمؤسسات ضاربة الجذور في تقاليد ثقافية مختلفة أن تعمل معاً لجسر الهوة بين هذه العوالم التي كثيراً ما كانت متباعدة عن بعضها على نطاق واسع .

وكنقطة انطلاق لمعالجة هذه الأسئلة ، أود العودة إلى كلمات جدي المقتبسة ضمن محاضرتين من محاضرات بترسون السابقة. لقد أدرجها ضمن خطاب قدمه كرئيس لجمعية الأمم في جنيف منذ نحو سبعين سنة . وهي في الأصل للشاعر الفارسي سعدي ، فكتب: " بنو آدم خلقوا من طينة واحدة وهم أعضاء لجسد واحد ، وعندما يعاني عضو واحد من أمر فكل الأعضاء الأخرى تعاني مثله على حد سواء. أنت أيها الغير مكترث بمعاناة زميلك، إنك لا تستحق أن تدعى رجلاً"

يمكنكم بسهولة فهم لماذا تبدو هذه الكلمات مناسبة لمحاضرة بترسون. إنها تتحدث عن القيم الأساسية للرابطة الإنسانية الشاملة التي هي هدية الخالق التي تطلب منا جميعاً بذل جهودنا في سبيل هذه القيم وتأييدها من أجل المواطنة العالمية . كما أود أيضاً أن أقتبس أكثر التعابير قوة عن وحدة الجنس البشري لأن مصدرها المباشر القرآن الكريم ، وأدعوكم أن تفكروا فيها. يوجه القرآن الكريم خطابه ليس فقط إلى المسلمين ولكن إلى الجنس البشري بأكمله ، حيث يقول: " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . " (النساء/1)

تعبّر هذه الكلمات عن بصيرة روحية عميقة ، وعن أمر الهي إذا صح التعبير، والتي ينبغي برأيي أن ندخلها ضمن التزاماتنا التعليمية. ذلك لأننا نرى النوع البشري ، وعلى الرغم من اختلافاتنا، كمخلوقات لله ولدوا من نفس واحدة ، فإننا نصر على تخطي الحدود التقليدية عندما نتداول في القضايا ونتواصل مع بعضنا ونعلم على المستوى الدولي. وقد وضع بيان مهمة البكالوريا الدولية في المكان الصحيح جداً عندما تضمنت الفكرة التالية: "تشجيع الطلاب عبر العالم ليصبحوا نشطاء ورحماء ومتعلمين على مدى الحياة، ويفهمون أن الناس الآخرين قد يكونون على حق مع اختلافاتهم".

فكر مجتمع البكالوريا الدولية طويلاً وجدياً بأن يصبح الطلاب واعين ومدركين لعالم أوسع ، ومتعاملين بفعالية مع تنوع هذا العالم المذهل وترابطه المتنامي مع بعضه البعض . لقد تصارع برنامج البكالوريا الدولية بقوة مع واحد من أغاز العصر الأساسية هو كيف ينظر بعين الاعتبار إلى التحديات المختلفة تماماً . فالتحدي الأول هو حقيقة أن العالم سيصبح مكاناً واحداً بشكل متزايد ، وهو شبكة مدهشة من التفاعلات العالمية تتقاطع مع بعضها عبر خطوط التقسيم والانفصال التي اتسم بها معظم تاريخه. هذه الموجة المتسارعة من الترابط هي شئ نعرفه كتدويل عندما أطلق برنامج البكالوريا العالمية منذ 40 عاماً ، ونشير إليه اليوم باسم "العولمة" ، والذي يحمل معه نعماً لا تحصى ومخاطر جسيمة، ليس أقلها خطراً من أن تصبح العولمة مرادفاً للتجانس. لماذا يتصف التجانس بمثل هذا الخطر ؟ ذلك لأن التنوع والاختلاف يشكل إحدى نعم الخالق الأكثر جمالا، ولأن التزامنا المكين تجاه خصوصيتنا هو جزء مما يعني أن نكون بشرا . أجل ، إننا بحاجة إلى روابط تجمع عبر اختلاف الثقافات ، ولكن ينبغي لكل ثقافة أن تفخر بالمعنى الخاص الذي يكون ذاتها . والجانب السلبي للعولمة هو التهديد الذي قد تمثله للهويات الثقافية .

بيد أن هناك أيضاً تحدياً ثانياً كبيراً هو التوقع في عالمنا، وهو من بعض الأوجه يعني المواجهة الدقيقة للعولمة . وأعني بذلك الاتجاه المتنامي نحو التشطي والمواجهة بين الشعوب. وفي الوقت الذي ينعدم فيه الأمن، يمكن للاعتزاز الثقافي الذاتي أن يتحول في كثير من الأحيان إلى مسعى لجعل ثقافة واحدة معياراً للثقافات الأخرى . فالبحث عن الهوية قد يصبح حينئذ عملية إقصاء ، وهي أن نعرف أنفسنا بأقل مما نعمل لأجله، وباكثير مما نحن ضدهم ، وعندما يحدث هذا فالتنوع يتحول سريعاً من مصدر للجمال إلى سبب للشقاق .

أعتقد أن تعايش هذين الاندفاعين القويين مع بعضهما البعض ، ما يمكن المرء من أن يدعو أحدهما عولمة جديدة من جهة، والآخر عصبية قبلية من جهة أخرى، سيمثل تحدياً مركزياً لقادة الثقافة في السنوات القادمة . وينطبق هذا الأمر بصفة خاصة على العالم النامي بتنوع هوياته المختلفة.

وكما تعرفون ، فإن العالم النامي كان محور تفكيري وعملي طوال حياتي . ولقد ورثت تقليد الالتزام بالتعليم من جدي . لقد بدأ قبل قرن من الزمان في إقامة شبكة اشتملت على نحو 300 مدرسة في العالم النامي تحمل اسم خدمات الآغا خان التعليمية، فضلا عن تأسيس جامعة عليكره في الهند . ويعود هذا الميراث الذي أصفه لكم الآن إلى أكثر من ألف سنة، يعود إلى زمن أجدادي الأئمة خلفاء مصر الذين أسسوا جامعة الأزهر ودار العلم في القاهرة . وعلى مدى قرون عديدة كان الالتزام بالتعليم عنصراً مركزياً في الثقافة الإسلامية الواسعة الانتشار . وتواصل ذلك الالتزام طوال إمامتي عبر تأسيس جامعة الآغاخان وجامعة آسيا الوسطى ، ومن خلال الوضع الحديث لبرنامج أكاديميات الآغاخان الجديد . وهذا ما جعل طريقنا يتلاقى مع طريقكم .

كما سمعتم ، فإن المنهاج التعليمي للأكاديميات اعتمد على برنامج البكالوريا الدولية . ونأمل بأن شبكة أكاديميات الآغاخان ستصبح جسراً لتوسع برنامج البكالوريا الدولية أكثر داخل العالم النامي . كل واحد منكم يعرف جيداً مكان البكالوريا الدولية من هذا الجسر، وقد فكرت أن أضيف كلمات قليلة عن جانب الأكاديميات من هذا الجسر، وحول هدفنا من إنشاء هذه الشبكة العالمية من المدارس ذات الجودة العالية .

كان وراء برنامج الأكاديميات اقتناع بأن القيادة المحلية الفعالة ستكون مفتاحاً للتقدم في العالم النامي وستسرّع من وتيرة التغيير فيه . ومن الواضح أن العقل والقلب البشري سيكونان العاملين المحوريين في تحديد الثروة الاجتماعية .

ولكن حتى الآن ، فإن القدرة على إيجاد قاعدة من المصادر البشرية في كثير من بلدان العالم النامي مازالت محدودة بشكل مؤسف . إن العديد من أولئك الناس الذين ينبغي أن يكونوا قادة الغد لا يُلتفت إليهم اليوم ، وحتى أولئك الطلاب الذين استطاعوا الوصول إلى تعليم جيد ، فإنهم غالباً ما يحملون بالعمل خارج ديارهم وعدم العودة إليها. وما ينتج عن ذلك هو اتساع الفجوة بين القيادة التي تحتاجها هذه المجتمعات وبين القيادة التي تعتمد على النظم التعليمية المتوفرة .

خلال كثير من مراحل التاريخ البشري، خُلق قادة ليستلموا مناصب بانتظارهم ، أو جاهدوا ليصلوا إليها ، أو دفعوا المال للحصول عليها ، ولكن في هذا القرن الجديد ، القرن الذي يشتمل على خطر غير معتاد ووعده مثير، يتطلب أن تخلي أرسقراطيات الطبقة مكانها إلى أرسقراطية الموهبة ، وحتى من الأفضل استخدام مصطلح أرسقراطية الجدارة والكفاءة. أوليس من المفاهيم الأساسية للديمقراطية ذاتها أنه ينبغي أن يكون انتخاب القيادة على أساس الجدارة؟

ينبغي أن يتضمن تعليم القيادة أموراً أكثر من مجرد تطوير مهارات روتينية . وكون المرء بارعاً في المهارات الروتينية ليس ككونه مثقفاً، والتدريب على تطوير المهارات مهما كانت أهميته مختلفة عن التعليم في فن التفكير وعلمه . إن الإغراء بغرس المهارات أكثر من التثقيف مفهوم بقوة بين الناس المحبطين لمدة طويلة . وفي العديد من هذه المجالات ، تتردد العواطف العامة بين مرارة الصبر والتشكك اللامبالي به ، فلا نفاذ الصبر ولا عدم الاكتراث هما الأجواء المواتية لتشجيع الفكر العقلاني . بيد أن في عصر التغيير المتسارع، وحتى أكثر المهارات تطوراً يعفو عليها الزمن بسرعة ، فلن نجد العديد من الحلفاء في العالم النامي يتوصلون إلى قناعة أن أهم مهارة يمكن أن يتعلمها أي شخص هي القدرة على مواصلة التعلم .

في عالم سريع التغيير ، فالذهن المرن القابل للتكيف ، والمزاج التعاوني والعملية ، والتوجه الأخلاقي القوي هي - وبشكل متزايد - مفاتيح القيادة الفعالة . وأود أن أضيف إلى هذه اللائحة من القدرات ، القدرة على التواصل الفكري التي تُبقي فكر المرء منفتحاً على تنوع وجهات النظر، وترحب بتبادل تعددية الأفكار .

ستصبح هذه القدرات على المدى الطويل ذات أهمية بالغة للعالم النامي، وصدف أن كانت هذه القدرات هي القدرات ذاتها التي صممتها برامج البكالوريا الدولية وأكاديميات الأغاخان للبحث على تبنيتها واستلهاها. فلأكاديميات مهمة مزدوجة : توفير تعليم متميز لطلاب متميزين من خلفيات متنوعة، وتوفير تدريب نظري على مستوى العالم لمجموعات متنامية من المعلمين الملهمين .

في هذه الأكاديميات الثماني عشرة ، يدرس فيها في كل واحدة منها من 750 إلى 1200 طالب ابتدائي وثنائي، ونتوقع أن يكون لدينا معلم واحد لسبعة طلاب، وسنؤكد كثيراً على انقضاء المعلمين وتدريبهم وتعويضهم مالياً جيداً . ونأمل أن يصبحوا قدوة مؤثرة للمعلمين الآخرين في مناطقهم .

تحقيقاً لهذه الغاية، نتوقع فتح مراكز تطوير مهني في غضون السنة المقبلة أو ما يشبه ذلك في الهند وبنجلادش وموزامبيق ومدغشقر. ويجري حالياً تخطيط مماثل لإقامة مثل هذه المراكز في أفغانستان وباكستان وسورية وتنزانيا وأوغندا، وستعمل هذه المراكز المهنية قبل فتح أبوابها للطلاب . خلاصة القول ، بدأت استراتيجيتنا بتعليم جيد ، وينبغي أن نعلم المدرسين أولاً.

عندما تفتتح الأكاديميات الواحدة بعد الأخرى، ستحدد سمة الانتساب إليها على أساس الجدارة ، والمبيت فيها ، وتعليم اللغة المزدوجة . وتمثل هذه السياسة اللغوية رغبتنا في توافق الخصوصية مع النظام العالمي . فاللغة الانجليزية ستمكّن الخريجين من المشاركة الكاملة على الساحة الدولية ، في حين يتيح تعليم اللغة الأم للطلاب من الوصول إلى الحكمة في ثقافتهم . ويتطلب توفيق الخصوصية مع النظام العالمي رعاية خاصة وحكمة، وحتى بعض الاختبارات الميدانية العملية للتأكد فعلاً أن من الممكن تطوير المناهج التي تستجيب بفعالية إلى الاتجاهين العالمي والوطني معاً، في الوقت الذي يكون هذا الأمر مفخرة بحد ذاته، وسيكون من المهم أيضاً التمسك جيداً بالاهتمامات العملية للغاية، مثل طبيعة امتحانات الدخول إلى الجامعة الوطنية في كل بلد ، والمصادر البشرية المطلوبة من أجل خطط تنموية لعدد من السنوات لكل بلد.

أعطت الأكاديميات الكثير من التفكير إلى العناصر التي سنصفها كعناصر عالمية في مناهجنا الدراسية، ونعتمد التركيز بشكل خاص على قيمة التعددية والأبعاد الأخلاقية في الحياة والاقتصاد العالمي ودراسة واسعة لثقافة العالم (بما فيها الحضارة الإسلامية) والنظم السياسية المقارنة . لقد ساعدنا معلمو البكالوريا الدولية من ذوي الخبرة على دمج هذه المجالات الهامة من التركيز ضمن المناهج الدراسية للأكاديميات .

سيدرس عدد من الطلاب لمدة سنة على الأقل في الأكاديميات الأخرى من شبكة الأكاديميات خارج بلدانهم الأصلية. وبطبيعة الحال، ينص برنامجنا أنه ينبغي تأهيل طلابنا لشهادة البكالوريا الدولية . كما ستتاح للجهاز التعليمي الفرصة من العيش في بلدان جديدة ، وتعلم لغات جديدة والاختراطات ضمن ثقافات جديدة .

قد تسألون أنفسكم عن الأسس التي تختارها خدمات الآغاخان التعليمية وبرنامج الأكاديميات للمواد الجديدة التي ستضاف إلى المناهج الدراسية للأكاديميات ، ورأيت من المفيد أن أوضح لكم هذا الأمر.

فيما يتعلق بالتعددية ، كانت لنا تجربة فهمنا منها أن عدداً كبيراً جداً من البلدان في أوروبا وآسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وفي أماكن أخرى ، فشلت فيها شعوب مختلفة بالعيش بسلام مع بعضها البعض ، وكان ذلك مصدراً رئيسياً للصراع بينها. وعلمتنا التجربة أيضاً أن الناس لا يولدون ولديهم القدرة الفطرية على أن يروا الآخر كشريك مساو لهم في المجتمع ، كما أنهم لا يرغبون رؤية ذلك . فالافتخار بهوية المرء المستقلة يمكن أن يكون من القوة بحيث تحجب قيمة الهويات الأخرى . والتعددية هي القيمة التي يجب أن تدرس .

وفيما يتعلق بمسألة الأخلاق ، نرى المجتمع المدني الكفاء بوصفه مساهماً رئيسياً في التنمية ، ولا سيما عندما تكون الديمقراطية ضعيفة ، والحكومات مختلة وظيفياً . لذلك فإننا منشغلون بنوعية الأخلاق لجميع عناصر المجتمع المدني ، ورفض الفكرة القائلة بأن عدم وجود الغش أو الفساد في الحكومة في أي مكان، كاف لضمان بيئة موثوقة ونظيفة وقوية لكل فرد من أفراد المجتمع. فالغش في مجالات الطب والتعليم ، والخدمات المالية وحقوق الملكية وتطبيق القانون ، أو الغش في المحاكم ، تمثل مخاطر لها تأثيرها الكبير على تنمية الشعوب . وينطبق هذا الأمر بصفة خاصة على البيئات الريفية التي تسكنها أغلبية شعوب العالم النامي ، حيث لا يبلغ عنه ولا يجري تصحيحه ، وبكل بساطة، يتم قبوله كشرط لا مفر منه للحياة .

التعليم من أجل الاقتصاد العالمي سيكون ضرورياً لضمان إمكانية التعويض في حال فشل الأنظمة الاقتصادية الماضية. ولكن لا يعني هذا القبول الساذج للاختلال والإجحاف المرتبط بالاقتصاد العالمي الجديد السائد اليوم . إننا بحاجة إلى تطوير إجماع واسع يركز على تهيئة بيئة اقتصادية عالمية عادلة .

سيدرس برنامجنا أيضاً الثقافات العالمية، لأن الصراع بين الثقافات ينبثق لا محالة من الجهل الفكري، وفي محاربة الجهل ، فإننا نحدّ من مخاطر الصراع أيضاً.

أخيراً، نود تدريس الأنظمة السياسية المقارنة ، وسيكون المزيد من الناس في العالم النامي قادرين على تقديم أحكام تقديرية ملائمة لداياتها ونظمها السياسية ، وكيفية تطوير مناهجهم الديمقراطية بطريقة أفضل لتكون مصممة طبقاً لاحتياجاتهم . فالاستفتاءات العامة لمقاطعة الدساتير الجديدة – على سبيل المثال - تخلق شعوراً بسيطاً عندما تدعو لإبداء الرأي من أناس لا يفهمون القضايا المطلوب منهم أن يحكموا عليها ، ولا البدائل التي ينبغي أن ينظروا فيها.

نتشارك مجالات المواضيع المخططة هذه بخاصتين: أنها تؤثر جميعها على عدد واسع من البلدان عبر قارات العالم ، وتعالج مشكلات تحتاج إلى عقود لحلها . وفي حين أحرزت الأكاديميات تقدماً معقولاً في تحديد مجالات واسعة من المناهج الدراسية ، لا بد لي أن أكون صريحاً في القول أن أكثر المواضيع القبلية المحلية الخاصة ببلدان معينة ، أو لربما مناطق محددة، هي مجالات مازالت بحاجة إلى مزيد من المعالجة ، وفي الواقع ينبغي أن نتوقع معالجتها بحذر خطوة بعد أخرى، بحيث نفضّل القماش حسب متطلبات كل فرد . ما نأمل فعله هو – باختصار - شبكة من ثمانية عشر مختبراً تعليمياً تتشارك جميعها بهدف عام مهيم ، ولكن كل واحد منها يتعلم من تجارب الآخرين الخاصة .

لقد تم افتتاح أكاديمية الآغا خان الأولى قبل أربع سنوات في كينيا، وأكملت أول دفعة من خريجي شهادة البكالوريا الدولية دراستها في حزيران الماضي. إن نوعية العمل الأكاديمي للطلاب بما فيه نجاحهم في امتحانات البكالوريا إلى جانب سجلاتهم في خدمة المجتمع، تجعلنا متفائلين في المستقبل.

عندما نتحرك باتجاه ذلك المستقبل، نود التعاون مع حركة البكالوريا الدولية في مغامرة صعبة ولكنها مغامرة تعليمية جديدة ملهمة. يمكننا مع المساعدة في إعادة صوغ تعريف حقيقي للمواطن العالمي المثقف جيداً، وبإمكاننا بدء تلك العملية بردم الفجوة التعليمية التي تقع في قلب ما دعاه البعض صدام الحضارات، والذي شعرت دائماً أنه بالأحرى دعوته صدام الجهل.

ألا ينبغي أن نتوقع في السنوات المقبلة، من طالب مدرسة البكالوريا الدولية في أتلانتا أن يعرف كثيراً عن جومو كينيي أو محمد علي جناح، كطالب في مومباسا أو لاهور يعرف عن ابن أتلانتا العظيم، القس الدكتور مارتن لوتر كينغ؟ ألا ينبغي على طالب البكالوريا الدولية من بنجلادش أن يقرأ أشعار طاغور في أكاديمية الآغا خان في داكا مثل أعمال الحائزين على جائزة نوبل في الأدب أمثال الروائي التركي أورهان باموك أو ويليام فولكنر الأمريكي أو توني موريسون؟

هل ينبغي دراسة الهندسة المعمارية للعصر الوسيط بمعزل عن دراسة كاتدرائية شارتر في فرنسا ومسجد جين في مالي؟ ألا ينبغي على طلاب العلوم في البكالوريا الدولية أن يدرسوا عن ابن الهيثم، العالم المسلم الذي طور علوماً في البصريات حديثة، والذي يتحدى بالأفكار التي قدمها أسلافه، إقليدس وبطليموس.

بما أننا نعمل معاً لردم الهوة بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، بين الاقتصاد النامي والاقتصاد المتطور، بين المناطق الريفية والحضرية، سيكون علينا إعادة تعريف ماذا يعني أن تكون مثقفاً.

يعتبر التوازن بين الخصوصية والعالمية تحدياً قديماً، فكرياً وعملياً، ولكن قد يصبح أكثر تحدياً وأكثر صعوبة مع مرور الزمن، وعندما يواصل كوكب الأرض تقلصه نتيجة لازدياد وسائل الاتصال. على كل حال، يوجد شيء واحد للحديث عن التفاهم الثقافي عندما يعيش الآخر في جميع أنحاء العالم، وغالباً ما تكون القضية مختلفة عندما يعيش الآخر في الشارع نفسه.

إنني معجب برغبة منظمة البكالوريا الدولية بمواجهة تحديات عصرنا الثقافية والانتقال إلى أنحاء العالم ومجالات المجتمع حيث كان النشاط أقل في الماضي. بيد أنه ينبغي علينا جميعاً أن نكون واضحين ونحن نباشر مثل هذه المشاريع، أن الناس الذين سنتعامل معهم يمثلون تحدياً مختلفاً عما قبل. وعندما يكون لدينا أهداف في اختيار الفرص، ينبغي أن نتفحص البيئات وندرس بعناية التغييرات التي يمكن أن تجعل البرامج أكثر صلة في المستقبل.

بعض الناس يقولون لنا أن العولمة هي عملية لا مفر منها، وهذا قد يكون صحيحاً في بعض أوجه النشاط، ولكن ليس هناك شيء لا مفر منه فيما يخص عولمة المناهج والمعايير التعليمية. إن تصور نظام عالمي للامتحان هو من أصعب المساعي الفكرية التي يمكن أن أتخيلها، على الرغم من أنه ينبغي أن يكون من أكثر الأمور إثارة. قد يُبقي الحافز العقلي للعمل في هذا المشروع، أفضل مربّي العالم منخرطين فيه طوال عقود. وإن هذه المهمة قد تكون أكثر قابلية للتحقيق بسبب الانطلاقة الرئيسية التي قامت بها منظمة البكالوريا الدولية بالتفكير في منهج دراسي عالمي. إن خبرة منظمة البكالوريا الدولية بغض النظر عن أكاديميات الآغا خان، وكذلك محاضرات بترسون عبر السنين، هيأت أساساً ممتازاً لتلك العملية.

بما أن البكالوريا الدولية تتجاوز الثقافات اليهودية-المسيحية، وهي الأكثر خبرة، يتوجب عليها جعل المعلمين في مناطق أخرى من العالم من أحدث الأعضاء المساهمين في منظمتها. وقد يعني هذا وضع عبارات أكثر وضوحاً تتعلق بالأخلاقيات العالمية وتستند إلى قيم إنسانية عالمية إن أمكن. ويمكن أن يتم ذلك عبر عملية متدرجة ومتطورة بشكل دائم، عملية تكون شاملة بشكل متزايد ولكن قد لا تكون كاملة.

ماذا يعني – على سبيل المثال – أن يُطبق برنامج البكالوريا الدولية في المجتمعات الريفية على نطاق واسع، حيث لمّا توجد المصادر البشرية والحوافز المادية لدعم التعليم الجدي والمستدام؟ ماذا يعني تطبيق التفكير النقدي والأحكام الفردية في مجتمعات معتادة على مراعاة رأي كبار السن وذوي السلطة والقواعد المتبعة والطقوس المطبقة.

ماذا يُطلب من منظمة عميقة الجذور في التقاليد الإنسانية الغربية عند التحدث بهذا الموضوع مع مواقع ثقافية غير غربية بشكل كامل؟ وكيف ينبغي التعامل مع تحديات التربية الأخلاقية المنبثقة عن القيم العالمية في أماكن حيث الولاءات الدينية والإيديولوجيات قوية على نحو خاص .

أطرح هذه الأسئلة ليس لأن لدي أجوبة جاهزة عليها ، ولكن لأنني أعتقد أن طرح مثل هذه الأسئلة سيكون أمراً جوهرياً لنقدمنا . أطرحها ليس لتثبيطكم عن الوصول إلى أجوبة عليها ، ولكن بالأحرى، كي أشجعكم عندما تسعون لهذا الهدف ، وتعملون على فهم كامل للمخاطر والضغوط التي ستواجهونها لا محالة .

أعتقد أن بالإمكان إيجاد أجوبة على هذه التساؤلات ، قد لا تكون كاملة وتامة، ولكن على الأقل توجد إجابات أولية ، وأجوبة مؤقتة، وأجوبة عملية . وكل خطوة على الطريق تعلمنا أكثر، وما هو جوهري بالنسبة لنا هو أن نبحث.

في التحليل النهائي ، ستكون مشكلة البشرية الكبرى في عصر العولمة تحقيق التوازن والتوفيق بين الاتجاهين اللذين تحدثت عنهما : البحث عن الهوية المتميزة والبحث عن الترابط العالمي. وما يتطلب منا هذا التحدي في النهاية هو الشعور العميق بالتواضع الفردي والجمعي ، والفهم بأن التنوع نفسه هو هبة إلهية، وقبول التنوع هو السبيل للتعلم والتطور ، وليس السبيل إلى تمييع هوياتنا، بل لإثراء المعرفة بالذات .

إن ما هو مطلوب يتجاوز مجرد التسامح والتعاطف وتحسس قضايا الآخرين، فالعواطف التي تظهر إلى حيز الوجود تنبثق عن نفس كريمة. إن الحساسية الثقافية الحقيقية الآن هي شئ أكثر صرامة ، وحتى أكثر فكراً من ذلك . إنها تعني ضمناً الاستعداد للدراسة والتعلم عبر الحواجز الثقافية ، والقدرة على رؤية الآخرين كما يرون أنفسهم . هذه مهمة شاقة ، ولكن إذا قمنا بها ، فإننا سوف نكتشف أن بالإمكان التوفيق بين العالمية والخصوصية. وكما جاء في القرآن قوله : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " (الحجرات/13) . إن اختلافنا هو الذي يحدد هوياتنا ويربطنا مع بعضنا البعض.

إنني لعلّي ثقة تامة بأن برنامج البكالوريا الدولية سيواصل النجاح عندما تمتد قيادته إلى مناطق جديدة في العقود الآتية، ولكن عندما يحدث ذلك ، سيكون بفعل مفتاح واحد متغير هو الروح التي من خلالها نعالج هذه الالتزامات الجديدة. وسيكون هناك إغراء قوي لنا للنظر إلى هذه الحدود الجديدة كأماكن يمكن أن نجلب إليها هدية المعرفة الخاصة المتراكمة والحكمة المتروية، ولكن أود التحذير من هذا التأكيد في القول ، لأن أهم سبب لنا للتمسك بهذه الفرص الجديدة لا يكمن فيما يمكن أن نحقق فيها ، بل فيما يمكننا التعلم منها .

وشكراً جزيلاً .

